حيثيات ووقائع الحرب الاسرائيلية المفتوحة على لبنان

العميد الدكتور كميل حبيب*

*عميد كلية العلوم الاقتصادية وادارة الاعمال في الجامعة اللبنانية.

مقدمة:

ليل ١٣ شباط ٢٠٠٨ اغتالت اسرائيل القائد عماد مغنية في دمشق. وفيما وصفت جريدة السفير الحاج رضوان بانه "صانع البطولات الاسطورية" للمقاومة ولحزب الله، فرحت اسرائيل لنبأ اغتياله ورأت واشنطن "العالم افضل من دونه. " (١) لكن، وفي يوم تشييع القائد الشهيد، اشار سماحة الامين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله في كلمة وجهها الى الامة ان الصهاينة تجاوزوا الخطوط الحمر بقتل عماد مغنية في سورية وخارج الاراضي اللبنانية. وخاطب سماحته الاسرائيليين قائلا": "ان كنتم تريدون هذا النوع من الحرب المفتوحة فلتكن حربا" مفتوحة. " (٢)

اللافت انه لا يوجد في القانون الدولي ولا في الادبيات السياسية والعسكرية اي تعريف محدد لمعنى الحرب المفتوحة. فهناك تعريفات متعددة لمعنى الحرب منذ SUNTZU وحتى CLAUSEWITZ؛ كما ان هنالك تعريفات لفعل الحرب (ACT OF WAR)، وللحرب النفسية والاعلامية وللحرب الباردة وحرب العصابات. في رأينا ان الحرب المفتوحة تدل على حالة من العدوان الدائمة تحت شتى الاعذار والاسباب، وغير محدودة في زمن او مكان معينين

لقد قامت الدولة الصهيونية منذ نشأتها بشن سلسلة من الحروب ضد الشعب الفلسطيني والدول العربية المجاورة بحجة الدفاع عن النفس، غير آبهة باتفاقات الهدنة وضاربة عرض الحائط قرارات الشرعية الدولية. وبالعودة الى عملية اغتيال الشهيد مغنية في دمشق، فان اسرائيل تكون بعملها المدان قد استندت الى قرار مجلس الامن رقم ١٧٠١ الذي قال: "بوقف العمليات الحربية" لكنه لم يتحدث عن وقف لاطلاق النار بين المقاومة والكيان الصهيوني. وعليه، فان عملية الاغتيال قد تمت في سياق حرب تموز المستمرة سياسيا" واعلاميا" ضد حزب الله والمقاومة اللبنانية. لكن اللافت في الامر ان العملية تمت خارج الاراضي اللبنانية التي كانت مسرحا" "تقليديا"" للمواجهات العسكرية بين جيش الاحتلال والمجاهدين.

في رأينا ان الحرب الاسرائيلية المفتوحة ضد لبنان قد بدأت قبل انشاء دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ بوقت طويل، وستبقى مستمرة، ليس فقط بهدف الاستيلاء على مياهه، بل وايضا" بهدف تدميره وانهاء وجوده بالكامل. فالتنوع الطائفي الذي جعل من لبنان مركزا" للحوار المسيحي – الاسلامي، والذي نتج عنه مبدأ التوافقية كسمة للحكم، وجدت فيه اسرائيل نقيضا" لوجودها العنصري كدولة صنعت لاجل اليهود وحدهم. اضف الى ذلك ان لبنان يشكل منافسا" اقتصاديا" لتل ابيب خاصة فيما يتعلق بالسياحة وقطاع الخدمات وروح المبادرة الفردية عند اللبناني.

سنحاول في هذه الدراسة قراءة الحيثيات والوقائع للحرب الاسرائيلية المفتوحة على لبنان، مسهبين في قراءة موقع لبنان في الفكر الصهيوني العدواني، فيما يخص تحديدا" الاطماع الصهيونية في الارض والمياه، وما نتج عن ذلك من اعتداءات وحروب ومجازر الى ان بزغ فجر المقاومة التي فرضت حقها في الوجود الانساني منهية عصر الهزائم العربية ومتوجة انتصاراتها بانتصار "الوعد الصادق" الذي اتى صادقا" بكل المقاييس السياسية والعسكرية والاعلامية.

I - حيثيات الحرب الاسرائيلية المفتوحة:

كما ذكرنا آنفا"، فان الحرب السرائيلية على لبنان لم تكن وليدة الازمات الداخلية اللبنانية، والتي اخذت منحى" عنيفا" بين ١٩٧٥ و ١٩٩٠ كادت ان تعرض الوطن بكامله لخطر الزوال. فبحسب العهد القديم يعتبر لبنان جزءا" لا يتجزأ من ارض الميعاد. فعلى سبيل الدلالة لا الحصر، جاء في سفر التثنية (١١:٢٤) ما يلي: "كل مكان تطأه اخامص اقدامكم انطلاقا" من البرية يكون لكم. ومن لبنان ومن نهر الفرات، الى البر الغربي، تكون حدودكم." وعيله فان احتلال اسرائيل للبنان، ارضا" ومياها"، يعتبر في راي الصهاينة تتمة لنبؤة توراتية وجب عليهم تحقيقها بالحديد والنار تنفيذا" لاوامر الههم يهوه. وهكذا، يخلص بلال شرارة الى القول: "ينبغي لنا ان لا نفكر لحظة واحدة في ان اليهود يعتقدون بان حقهم في الارض كلها يتعلق باعتبارات متغيرة في جوهرها، او ظرفية كالضرورات الامنية او الاقتصادية او السكانية." (٣)

فبعد المؤتمر الصصهيوني الاول الذي عقد في بازل، سويسرا، عام ١٨٩٧، حاول القادة الصهاينة اقناع بريطانيا بجعل جنوب لبنان جزءا" من ارض فلسطين التاريخية. وظهرت الفرصة سانحة لحظة تفكك الامبراطورية العثمانية ابان الحرب العالمية الاولى. فقامت الحركة الصهيونية بتقديم اقتراح الى مؤتمر السلام في باريس عام ١٩١٩ تطلب فيه ان تصل حدود الدولة اليهودية الى نقطة تقع جنوب مدينة صيدا. لكن الجنوب كان قد وقع تحت سلطة الانتداب الفرنسي بعد عام ١٩٢٠، ولم يكن من مصلحة الحركة الصهيونية التشكيك بالنوايا الفرنسية المستعدة لحماية مصالحها في فلسطين.(٤)

لقد اعتمد قادة الصهاينة في اقتراحهم الى مؤتمر السلام في باريس بضم جنوب لبنلن الى ارض فلسطين على تبريرات اقتصادية وليس على تبريرات امنية. وبالفعل، رمت الحركة الصهيونية من وراء اقتراحها الحصول على المياه التي تحتاجها الدولة اليهودية المزمع اقامتها. ففي الفكر الصهيوني، ان وجود المياه يشجع المستوطنين على الارتباط اكثر بالارض التي لم يولدوا فيها. وفي رأي الحركة الذي اعلنته في مؤتمر باريس انه لا يوجد استثمار حقيقي لموارد المياه، وان استثمار الدولة اليهودية للمياه قد يفيد لبنان والدولة اليهودية. *وكانت الحركة الصهيونية في المذكرة التي رفعتها الى مؤتمر السلام المذكور آنفا" (١٩١٩)، قد اعربت بوضوح عن رغبتها في الاستيلاء على جنوب لبنان وجبل الشيخ. فقد ورد فيها:*

ان جبل الشيخ (حرمون) هو ابو المياه الحقيقي لفلسطين، ولا يمكن فصله عنها دون توجيه ضربة قاصمة الى جذور حياتها الاقتصادية بالذات. وجبل الشيخ لا يحتاج فقط الى اعادة تحريج وتشجير، بل ايضا" الى اعمال اخرى قبل ان يصبح مؤهلا" ليكون خزان مياه البلاد. لذلك يجب ان يخضع كليا" لسيطرة اولئك الذين تحدوهم الرغبة الشديدة ويملكون القدرة الكافية لاستغلال امكاناته حتى اقصى الحدود. كما يجب التوصل الى اتفاق دولي تحمى بموجبه حقوق المياه للشعب القاطن جنوبي نهر الليطاني حماية تامة، اذ ان منبع المياه هذه، فيما لو حظيت بالعناية اللازمة، تستطيع ان تخدم تنمية لبنان مثلما تخدم تنمية فلسطين.(٥)

ان تصميم قادة الصهاينة على ضم نهر الليطاني لم تتبدل. ففي رسالة بعث بها WEIZMAN الى اللورد CURZON اعلن فيها: "ان لبنان الغني بالمياه لا يحتاج الى نهر الليطاني، اذا حرمت فلسطين من مياه الليطاني، فلا يمكنها ان تكون مستقلة اقتصاديا"." (٦) وهكذا، فتحت ستار اتفاقية الحدود الفرنسية – البريطانية في ١٩٢٠/١٠/١٣، و اتفاق PAULES – NEW COMB في ١٩٢٣/٣/١، عمدت سلطات الانتداب الى احداث تغيير في الحدود بين لبنان وفلسطين لصالح توسيع الاراضي الفلسطينية من اجل السيطرة على مصادر المياه. و في راي د. طارق المجذوب، فان هذه

الصكوك القانونية كرست ‘‘منطقة الحولة ذات السهول الخصبة والمياه الغزيرة المعروفة بجورة الذهب منطقة تابعة لفلسطين. وبموجب هذه الصكوك سلخت من دولة لبنان الكبير القرى اللبنانية السبع: هونين، ابل القمح، النبي يوشع، قدس، المالكية، صلحا وطير بيخا.’’ (٧) ولا حاجة للتذكير ان هذه القرى مشهورة بينابيعها الوفيرة وآبارها الغنية بالمياه.

ايضا"، وفي سعيها العدواني للسيطرة على المياه، تمكنت الحركة الصهيونية من انتزاع تنازل سلطة الانتداب الفرنسي عن معظم المنطقة اللبنانية من الحولة لصالح الانتداب البريطاني. وبذلك تم سلخ ٢٣ قرية لبنانية هي: المطلة، النخيلة، الصالحية، الناعمة، الخالصة، الدوارة، الخصاص، العباسية، دفنه، اللزازة، معسولة، الدميرجات، الجردية، كفربرعم، الزاوية، المنصورة، الذوق الفوقاني، الذوق التحتاني، شوقا، خان الجوير، افرت، حانوتة وصروح.(٨) اخيرا"، وخلال الاجتماعات التمهيدية لاتفاقية الهدنة بين لبنان واسرائيل في ١٩٤٩/٣/٢٣ ضمت تل ابيب عدة مزارع مساحتها ٢٠٠٠ دونم. (٩)

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ كشف الصهاينة عن اطماعهم في المياه اللبنانية. ففي شهر ايلول من ذلك العام بعث دايفد بن غوريون الى الرئيس الفرنسي الجنرال شارل ديغول برد حول نيات اسرائيل تجاه لبنان جاء فيه: ‘‘ان امنيتي في المستقبل هي ان اجعل الليطاني الحدود الشمالية لاسرائيل.’’ وانتقد رئيس وزراء اسرائيل آنذاك، ليفي اشكول، ‘‘ضياع نصف مليار متر مكعب من الليطاني في البحر بدل ان تستفيد منها شعوب المنطقة.’’(١٠) وتنفيذا" لاطماعها، قامت تل ابيب بضم مساحات شاسعة من الاراضي اللبنانية، وتم ذلك على مراحل وفي فترات زمنية متباعدة. ففي عام ١٩٦٧ اقتطعت اسرائيل اراضٍ واسعة من مزارع شبعا؛ ففي عام ١٩٧٣ احتلت تل ابيب مناطق متاخمة لجبل الشيخ، وفي عام ١٩٧٥ ضمت جبل الشميس، وفي عام ١٩٨٢ شقت طريقا" في الضفة الجنوبية لنهر الوزاني بطول ١٢ كلم، واقتطعت المنطقة المحيطة بنبع الوزاني ومساحتها ٥٠٠٠ دونم، وفي عام ١٩٨٦ قامت بتسييج مساحة تقدر بحوالي ٣١ كلم^{٢} تمتد من حرج الخيام الى مركبا.

وهكذا نرى ان اسرائيل واصلت منذ قيامها عمليات القضم والضم للاراضي اللبنانية بهدف الاستيلاء على المياه. وعلينا الا ننسى ان نجمة داوود في العلم الاسرائيلي تحدها خطوط مائية زرقاء. ولهذا يخلص د. مجذوب الى القول: ‘‘ان حدود اسرائيل في الحلم او الواقع او القوة هي حدود مائية.

فالحديث عن اسرائيل الصغرى يعني وجود كيان تحده انهار لبنان وبحيرة طبريا والبحر الميت. والحديث عن اسرائيل الوسطى يعني قيام كيان يقع بين نهر الاردن وقناة السويس والبحر الاحمر. والحديث عن اسرائيل الكبرى يعني امتداد او تمدد الدولة العبرية من الفرات الى النيل"(١٢)

ان هدف اسرائيل السيطرة على مياه لبنان يعني احتلال ارضه والقضاء على كيانه السياسي. ففي اواخر الاربعينيات من القرن الماضي اكد موشي شاريت على خطة تل ابيب "لاثارة القلاقل، والعمل على تقطيع اوصال لبنان (اي تقسيمه)، واقامة نظام دمية فيه خاضع لسلطة اسرائيل" (١٣) من جهته اقترح ديفيد بن غوريون الى الغاء الحكومة اللبنانية في السنة الاولى (١٩٤٩) لاقامة الكيان الصهيوني . وفي رسالة له مؤرخة في ٢٧ شباط من عام ١٩٥٤ كتب يقول: "علينا التحضير لهجوم بهدف القضاء على لبنان، مملكة شرق الاردن وسورية." ويضيف، "ان لبنان هو الحلقة الاضعف في الائتلاف العربي. فنظامه مصطنع ومن السهولة تقويضه. يجب اقامة دولة مسيحية بحدودها الجنوبية بمحاذاة الليطاني، وسوف نقيم السلام معها." (١٤)

اخيرا"، كان لموشي دايان ان يضع خطة بن غوريون موقع التنفيذ. وهو يقول في هذا الصدد: "كل ما نحتاج اليه هو ايجاد ضابط حتى برتبة كابتن، نستميله نحونا او نشتري تعاونه حتى يعلن نفسه كمنقذ للموارنة." بعد ذلك، يتابع دايان:"يدخل الجيش الاسرائيلي لبنان، يحتل مايراه مناسبا" من الاراضي، ويشكل حكومة مسيحية متحالفة مع اسرائيل. ثم تقوم اسرائيل بضم الاراضي الواقعة جنوب نهر الليطاني وينتهي الامر"(١٥) وعليه، فان اهمية جنوب لبنان السياسية والاقتصادية يمكن وينتهي ايجازها على النحو الاتي: ان اعتقاد قادة الصهاينة بانهم حرموا من منطقة جنوب لبنان التي يحتاجون الى مياهها وتضاريسها قد جعل العلاقة بين بيروت وتل ابيب محكومة بحرب اسرائيلية مفتوحة تضمنت اجتياحات ومجازر وقضم للاراضي وتدمير لمشاريع المياه. فلا القرارات ولا المواثيق الدولية شكلت رادعا" للكيان الصهيوني، ولا هي ساعدت لبنان على تحرير ارضه وضمان حقوقه.

صحيح ان لبنان كان اول دولة عربية توقع على اتفاقية الهدنة مع اسرائيل في ٢٣ اذار ١٩٤٩، لكن هذه الاتفاقية لم تكن وليست معاهدة سلام. فعلى المستوى النظري، وبعد حرب ١٩٦٧، اتخذت تل ابيب قرارا" بالغاء اتفاقية الهدنة متذرعة ببعض الحجج الواهية. منها القول بان رسالة رئيس وزراء

لبنان المرحوم رشيد كرامي اكدت على تضامن لبنان مع دول المواجهة، المؤرخة في ١٩٦٧/٧/٣١. فسارع وزير خارجية اسرائيل في ١٩٦٧/٨/١٤ الى الغاء اتفاقية الهدنة مع لبنان من طرف واحد. وقد اضاف دايفد كيمحي جملة حجج لالغاء الاتفاقية المذكورة منها توقيع لبنان لاتفاق القاهرة مع منظمة التحرير الفلسطينية في عام ١٩٦٩. (١٦) اما من الناحية العملية، فيمكننا ملاحظة حالة الحرب الاسرائيلية المفتوحة على لبنان (الشعب والارض والمياه) من خلال قراءتنا للاعتداءات والغزوات المتكررة التي قام بها الجيش الاسرائيلي في الجنوب ووصولا" حتى العاصمة بيروت. وقد ارادت تل ابيب من وراء كل ذلك القضاء على وجود لبنان مبررة ارهابها بحاجتها للمياه.

وكانت اسرائيل قد اعدت العدة في العام ١٩٨٣ لتحويل مياه الليطاني. ففي ١٦ ايار ١٩٨٣، اي عشية التوقيع على اتفاق ١٧ ايار الشهير، قال وزير الخارجية آنذاك، د. ايلي سالم، امام مجلس النواب: "ان المخططات والدراسات لتحويل مياه اليطاني مكتملة، ولا ينقصها الا ألأمر بالتنفيذ ".(١٧) وأكد الوزير ميشال اده هذا الامر خلال ندوة عقدت في اوكسفورد حول الجنوب والمياه حين قال: "ان مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية السابق، ديفيد كيمحي، اكد بعد التوقيع على اتفاق ايار بايام في رسالة بعث بها الى المفاوض (الوسيط) الامريكي جيمس درايبر، ان انسحاب اسرائيل من لبنان ينتظر ان يرتبط بضمان حصول اسرائيل على حصة من مياه الجنوب اللبناني. " (١٨)

ان تصريحات القادة الصهاينة فيما يخص الاطماع الاسرائيلية في لبنان اكثر من ان تحصى، وهي من الثوابت السياسية الاسرائيلية تجاه هذا البلد. وانها لاشكالية كبرى ان تعلن اسرائيل عن استعدادها للانسحاب من الاراضي اللبنانية لكن بعد انتزاع تعهدات بالحصول على "حصتها" من مياه نهر الليطاني. (١٩) وانها لمفارقة عجيبة ان تقايد اسرائيل عدم احتلالها للبنان بالعمل الجاد على احتلال مصادر مياهه وتقسيم ارضه وانهاء وجوده السياسي. وبقول الاستاذ يوسف ديب في هذا الصدد:

العدوان الاسرائيلي المستمر باشكال مختلفة على لبنان منذ العام ١٩٤٨ الى اليوم، كان جزءا" اساسيا" من الاستراتيجية الصهيونية ضد المنطقة العربية، باعتبار ان لبنان هو الحلقة الاضعف في المنظومة العربية، في رأي القادة الصهيونيين. وتفتيته، ان لم يكن بالامكان تدميره، مسالة ضرورية لانجاح فكرة الوطن القومي اليهودي باعتبار ان لبنان يمثل النقيض التام سياسيا" واقتصاديا" واجتماعيا" وثقافيا" للكيان الصهيوني المستولد. لذا كان جزء كبير من الارهاب الصهيوني موجها" ضد لبنان للقضاء على هذا النموذج الحضاري الحي للتعايش بين مختلف الاديان. وكان من نتيجة التدخل الصهيوني في لبنان، الحرب الدموية التي شهدها منذ اواسط السبعينيات والى اواخر الثمانينات، والغزوات المتكررة لاراضيه، والاعتداءات على جنوبه بصورة خصوصية. (٢٠)

II - وقائع الحرب الاسرائيلية المفتوحة:

ان تاريخ الاعتداءات الاسرائيلية على لبنان هو تاريخ الارهاب الصهيوني بامتياز. من هذه المجازر نذكر مجزرة حولا (١٩٤٨)، مجزرة صلحا (١٩٤٨)، غزو مطار بيروت (١٩٦٨)، مجزرة صيدا (١٩٧٥)، مجزرة حانين (١٩٧٦)، مجزرة بنت جبيل (١٩٧٦)، مجازر الخيام وكونين وراشيا الفخار والعباسية والصرفند (١٩٧٨)، مجازر جوية وبحرية (١٩٨١)، مجازر غزو العام (١٩٨٢)، مجزرة جنتا (١٩٨٤)، مجزرة جبشيت (١٩٨٤)، مجازر صيدا الغربية والزرارية وحومين التحتا ومعركة (١٩٨٥)، مجازر عدوان تموز (٩٩٣)، مجازر دير الزهراني (١٩٩٤)، مجزرة النبطية الفوقا (١٩٩٥)، مجازر المنصوري وقانا والنبطية الفوقا وسحمر (١٩٩٦)، مجازر صيدا والكفور وعربصاليم (١٩٩٧). (٢١) وكانت حصيلة هذه المجازر المتنقلة والسنوية تقريبا"، ١٧٧١ شهيدا" وآلاف الجرحى، يضاف اليهم ٧٣ الف شهيد وجريح في العام ١٩٨٢ وحده.

وفي وصفها لمجزرة قانا الاولى (١٩٩٦) التي ارتكبتها اسرائيل في سياق ما اسمته "عملية عناقيد الغضب"، كتبت الدكتورة جورجيت عطية ابراهيم في مقدمتها لكاتب المفكر الفرنسي روجيه غارودي، الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية، ما يلي: "واما قانا الجليل فان دمها لم يجف بعد، واطفالها ما زالوا يبحثون عن الحقيقة. وعندما دوت صيحة موتهم عالية وحزينة في اروقة الامم المتحدة كان زعماء اسرائيل يضحكون في سرهم لان موت العرب لا معنى له في نظرهم، فهو وقود لدولة تخطو خطوتها منذ سنوات بعيدة على ارضنا العربية بالدم والحديد والنار... " (٢٢)

نعم في ١٨ نيسان ١٩٩٦ قصفت المدفعية الاسرائيلية، وعن سابق تصور تصميم، مواقع القوات الفيدجية التابع للامم المتحدة مخلفة ١٠٧ شهيدا" معظمهم من النساء والاطفال. وقد اشار تقرير الامين العام للامم المتحدة في ٧ ايار الى "ان نسق سقوط القذائف في منطقة قانا يجعل من غير المرجح ان يكون قصف مجمع الامم المتحدة نتيجة اخطاء تقنية واجرائية. " (٢٣) المهم ان عملية عناقيد الغضب جاءت بعد انعقاد مؤتمر شرم الشيخ في ١٢ اذار ١٩٩٦ تحت شعار قمة صانعي

السلام. هذا المؤتمر انعقد لدعم شيمون بيريس المتهم بالتقصير في الانتخابات البرلمانية والتي حددت ي ٢٩ ايار ١٩٩٦. وفي اليوم التالي الذي اعقب المؤتر تعهد الرئيس الامريكي بيل كلينتون بتقديم ١٠٠ مليون دولارلاسرائيل لمساعدتها على "مكافحة الارهاب" (٢٤) فكانت مجزرة قانا.

ايضا"، وبدعم امريكي فاضح قامت اسرئيل بارتكاب مئات المجازر بحق المدنيين اللبنانيين ابان الحرب الاسرائيلية على لبنان في تموز ٢٠٠٦. فبعدما جددت وزيرة الخارجية الامريكية كونداليزا رايس رفضها الدعوات الى وقف فوري للحرب، وصفت العدوان الاسرائيلي بانه "الام مخاض لولادة شرق اوسط جديد. " (٢٥) وهكذا، لمساعدة واشنطن على بسط سيطرتها على الشرق الاوسط، قامت اسرئيل باقتراف المجازر التالية: الدوير، مروحين، الرميلة، صريفا، الغازية، عيناتا، النبي شيت، قانا (الثانية)، بعلبك، القاع، الشياح، عرسال، مشغرة، بريتال، مرجعيون، البرج الشمالي، والحيصة. ولقد قدرت وكالة الصحافة الفرنسية عدد الضحايا اللبنانيين باكثر من ١١٤٥ شهيدا" و٣٦٢٨ جريحا" وحوالي مليون نازح غادروا منازلهم الى اماكن داخل لبنان او خارجه.(٢٦)

باستثناء معركة المالكية التي خاضها الجيش اللبناني بين شهر كانون الاول عام ١٩٤٧ واستمرت حتى شهر نيسان من عام ١٩٤٨، لم يشترك لبنان الى جانب الدول العربية في حربي السويس (١٩٥٦) والايام الستة (١٩٦٧). لكن مع وصول منظمة التحرير الفلسطينية الى الجنوب اللبناني قادمة من الاردن، وقيامها بعمليات عسكرية عبر الحدود اللبنانية، اقتنع الاسرائيليون بضرورة تطبيق خطة بن غوريون. وقد لاحت الفرصة سانحة لذلك عام ١٩٧٥ الذي شهد بداية الحرب الاهلية بحيث جعلت تل ابيب نفسها جزءا" لا يتجزأ من المعادلة الداخلية. ومع اشتداد تلك الحرب بدا النظام السياسي عاجزا" عن تأمين الآلية كلها، فما كان من الدول المتاخمة للبنان الا ان تداعت لملء الفراغ لدرجة اضحى معها اللبنانيون يخوضون حربا" بالوكالة عن القوى الاقليمية.

في ايار من عام ١٩٧٦ اقامت اسرائيل "الجدار الطيب" لتوفير العمل لبعض اللبنانيين مقابل تهريب البضائع الاسرائيلية الى داخل الاراضي اللبنانية. اما من الناحية العسكرية، فقد ارادت تل ابيب من وراء "الجدار الطيب" جعل ابناء الشريط الحدودي متعاونين معها في مواجهة القوات الفلسطينية.

لاجل ذلك، قامت اسرائيل بدعم "جيش لبنان الجنوبي" بقيادة الرائد سعد حداد. وبالفعل فقد اصبح ذلك الجيش يشكل "اكياس رمل" تفصل بين شمال اسرائيل والقوات الفلسطينية.

لكن تغييرا" جذريا" طرأ على تلك السياسة الاسرائيلية بعد وصول مناحيم بيغن الى رئاسة الحكومة بعد فوز حزبه، الليكود، في الانتخابات التشؤيعية التي جرت في ايار ١٩٧٧. وعلى خلفية الانقسام السياسي في لبنان، بدأ بيغن التطلع الى التدخل العسكري المباشر في الحرب الاهلية اللبنانية ليكون لاسرائيل تأثير ما في مجرى الاحداث في بلد عربي. بعد ذلك، قام الجيش الاسرائيلي بغزو لبنان في اذار ١٩٧٨ في عملية اطلق عليها اسم "الليطاني" اما اهداف الغزو فيمكننا ايجازها على النحو التالي:

أ – تدمير البنى التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية

ب – توسيع منطقة "الجدار الطيب"

ج – امتحان التزام مصر بعملية السلام والمفاوضات المباشرة مع اسرائيل بعد زيارة الرئيس انور السادات الى القدس في تشرين الثاني من عام ١٩٧٧.

تمكن الجيش الاسرائيلي من تحقيق اهدافه العسكرية بعد قصف جوي وبري وبحري ادى الى تدمير قرى ومدن الجنوب. فقام بيغن بتسليم ٢٣ موقعاّ اسراتيجياّ " لجيش لبنان الجنوبي" الذي اعلن قائده "دولة لبنان الحر" في ١٨ نيسان ١٩٧٩ (٢٧) اما على المستوى السياسي، فقد منيت اسرائيل بهزيمة منكرة بعد ما اصدر مجلس الامن الدولي قرار رقم ٤٢٥ طالب فيه اسرائيل الى "ان توقف فورا" عملها العسكري ضد سلامة الاراضي اللبنانية وسحب قواتها دون ابطاء من كل الاراضي اللبنانية. " (٢٨) ولقد اسفر الاجتياح عن استشهاد ٥٦٠ مواطنا" لبنانيا" و٦٥٣ جريحا". وارتكب العدو في سياق هذا العدوان مجازر في بلديات الخيام، كونين، راشيا الفخار، العباسية والصرفند. اخيرا"، وفي ضوء التعنت الاسرائيلي الانصياع للقرار ٤٢٥، تصاعدت ضربات المقاومة اللبنانية ضد جيش الاحتلال.

"عملية سلامة الجليل" هي التسمية التي اطلقها الجيش الاسرائيلي على غزوه البربري للبنان بتاريخ ٤ حزيران ١٩٨٢. وفي ٦ حزيران اصدرت الحكومة الاسرائيلية بيانا" حددت بموجبه اهداف الغزو على النحو التالي:

١- ابعاد سكان الجليل عن مرمى نار الارهابيين

٢- توقيع معاهدة سلام مع لبنان المستقل.

هذا يعني تدمير البنى التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية، توسيع منطقة "الحزام الامني" مسافة ٤٠ كلم في عمق الاراضي اللبنانية، وانهاء حالة الحرب بين لبنان واسرائيل عبر التدخل في انتخاب رئيس للجمهورية اللبنانية يكون مستعدا" لبدء مفاوضات سلام بين الدولتين.(٢٩)

وفي غضون ايام معدودات تمكن الجيش من محاصرة بيروت، اول عاصمة عربية يصل اليها الجيش الاسرائيلي. دام حصار بيروت ٨٣ يوما" قطع خلاله الجيش الاسرائيلي كل ضرورات الحياة عن السكان المدنيين. وبشكل عام، اوقع الغزو ٧٣ الف شهيد وجريح من اللبنانيين ودمر ٣٢ مدينة وقرية تدميرا" كليا". وخلال اقتحام بيروت ليل ١٤ ايلول ارتكب العدو مجزرة رهيبة في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين ذهب ضحيتها الالاف من المدنيين العزل. واكد الخبراء العسكريون استخدام الجيش الاسرائيلي لاسلحة الدمار الشامل المحرمة دوليا" مثل القنابل العنقودية والانشطارية والفوسفورية والفراغية، اضافة الى غاز "ب – س" الذي يسبب شللا" في الاعصاب.(٣٠)

باستثناء خروج مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، لم تتمكن اسرائيل من تحقيق اي هدف من اهدافها. ومن الدلالات الدامغة على ذلك الفشل بروز المقاومة الوطنية اللبنانية التي ابلت بلاء" حسنا" في توجيه ضربات قاسية للجيش الاسرائيلي واجبرته على الانسحاب مذعورا" من مدينة بيروت اولا". من جهته، يصف الشيخ نعيم قاسم مرحلة بروز المقاومة الاسلامية على النحو التالي: "اثناء هذه التطورات السريعة والمتلاحقة، كانت مجموعات المقاومة الاسلامية قد بدأت بالتشكل... كانت السنتان والنصف من عمر التأسيس كافية لبلورة عمل جهادي فعال، تمثل بالمقاومة الاسلامية التي ساهمت في هروب اسرائيل من جزء من لبنان عام ١٩٨٥. " وهكذا، يتابع الشيخ قاسم، "اعلن الحزب عن رؤيته العقائدية الجهادية السياسية الاجتماعية، ومباشرته التحرك العلني والسياسي، يوم اعلان الرسالة المفتوحة، في الذكرى السنوية الاولى لاغتيال شيخ الشهداء راغب حرب (قده) وذلك في ١٦ شباط ١٩٨٥. " (٣١) بعد ذلك، تابعت المقاومة الوطنية والاسلامية عملياتها العسكرية

بفعالية، حيث كانت تفتحم المواقع وتكمن للدوريات، وتوقع الخسائر البشرية المتتالية بين جنود العدو وعملائه.

وانتقاما" من عمليات المقاومة قررت تل ابيب عدوانا" على لبنان بدأته في ٢٥ تموز ١٩٩٣ واستمر لسبعة ايام متواصلة حتى مساء ٣١ تموز ١٩٩٣. هذا، وفي معرض تبريره للعدوان ذكر اسحق رابين، رئيس الحكومة الاسرائيلية انذاك "ان حزب الله شن ٨٨٢ هجوما" في الشريط الحدودي منذ اول سنة ١٩٩٣، وان ٩٩ جنديا" اسرائيليا" قتلوا في هذه المنطقة منذ انسحبت اسرائيل اليها سنة ١٩٨٥. " (٣٢) وعليه، فقد حدد شيمون بيريس اهداف العملية على النحو التالي: ان للهجمات هدفين: الذين يهاجموننا مباشرة وخصوصا" حزب الله، ولفت سكان لبنان والحكومات المعنية الى ضرورة ممارسة الضغوط لوقف نشاط حزب الله. (٣٣) ولتحقيق كل ذلك شنت اسرائيل عدوانها في عملية اطلقت عليها اسم "تصفية الحساب"، استمرت المواجهات بين اسرائيل والمقاومة مدة سبعة ايام كانت حصيلتها ١٢٣ شهيداً و٢٥٠ جريحاً وتهجير ٢٥٠ الف مواطن وتدمير مئات الوحدات السكنية.(٣٤)

توقف تبادل اطلاق النار في الجنوب في الساعة السادسة من مساء ١٩٩٣/٧/٣١ على اثر تفاهمات تم التوصل اليها بين اسرائيل والحكومتين اللبنانية والسورية بوساطة امريكية. فقد وافقت الاطراف، من دون توقيع اية وثيقة رسمية، على ان يتوقف حزب الله عن اطلاق صواريخ الكاتيوشا على الشريط الامني، وفي المقابل، اوقفت اسرائيل القصف الجوي والمدفعي على قرى جنوب لبنان. اما حزب الله، فقد اعلن في البيان الخاص بوقف اطلاق النار "ان صواريخ الكاتيوشا لم تستخدم الا في اطار الرد على العدوان الصهيوني الغاشم على اهلنا وقرانا. " واعلن حزب الله تمسكه بحق "الاستمرار في مقاومة الاحتلال حتى اجلاءه عن كامل ارضنا. " (٣٥) وهكذا كان؛ استمرت المقاومة فكانت "عملية عناقيد الغضب "الصهيونية" بين ١١ و ٢٦ نيسان.

وكي لا ننسى فقد كانت عملية الحقد هذه اشد عنفا" من عملية تصفية الحساب، حيث انها شملت مناطق اوسع، واستمرت ١٦ يوما"، واشتهرت بالمجازر الاربعة: سحمر، اسعاف المنصوري، النبطية الفوقا وقانا. اما حصيلة العملية فكانت استشهاد ١٦٤ مواطنا" بينهم ١٤ مقاتلا" للمقاومة الاسلامية، وتهجير مئات الالاف من ابناء الجنوب، وتدمير ٧٠٠٠ منزل، فضلا" عن تدمير عدد

كبير من البنى التحتية والاقتصادية والاجتماعية. (٣٦) اخيراً، في ٢٦ نيسان اعلن كل من بيريس ووارن كريستوفر من القدس والرئيس رفيق الحريري وهرفيه دوشاريت من بيروت وقفا" لاطلاق النار بين حزب الله واسرائيل على اساس اتفاق مكتوب هذه المرة عرف "بتفاهم نيسان". وهذا التفاهم يتميز عن تفاهم تموز بانه خطي، وله الية متابعة من خلال لجنة المراقبة الخماسية المكونة من لبنان، سوريا، فرنسا، الولايات المتحدة واسرائيل، ويعطي مشروعية للمقاومة باقرار العدو من خلال حق الدفاع عن النفس، والحديث عن تحييد المدنيين.(٣٧)

ازدادت الامال بالتحرير بعد التوقيع على تفاهم نيسان، ثم قوي اكثر في العام ١٩٩٩، عندما دخل تعهد الانسحاب من لبنان في برنامج المتنافسين على رئاسة الحكومة: بنيامين نتنياهو وايهود باراك. بعد فوزه في الانتخابات التشريعية حاول باراك انتزاع اتفاق امني مع لبنان. وعندما لم يفلح، فاجأ الكثيرين، حتى عملائه، بانسحاب مفاجئ لجيشه في ٢٤ ايار من عام ٢٠٠٠، ليتحقق بذلك اكبر هزيمة تمنى بها اسرائيل منذ نشأتها عام ١٩٤٨. لكن الانتصار الذي حققته المقاومة ولبنان بقي ناقصا" لان "الخط الازرق" الذي رسمه مندوب الامم المتحدة تيري رود لارسن هو خط الانسحاب الاسرائلي وليس خط الحدود الدولية. وهذه المسألة على قدر كبير من الاهمية اذ بقيت مزارع شبعا وقرية النخيلة وتلال كفرشوبا تحت الاحتلال الاسرائيلي. واهمية المزارع لا تنبع فقط من مساحتها (حوالي ٤٨ كلم ٢) او من وفرة ينابيعها، بل لانها ارض لبنانية، وكل شبر من ارض لبنان يساوي الكرامة الوطنية.

خاتمة: وفي اليوم الرابع والثلاثين:

في صباح الرابع عشر من آب ٢٠٠٦، عندما دخل قرار مجلس الامن رقم١٧٠١ موضع التنفيذ، والذي دعا كل من حزب الله واسرائيل الى "وقف كامل لجميع العمليات الحربية"، دخل لبنان مزهوا" بنصر مخضب بدماء الشهداء في مواجهة اعتى قوة في الشرق الاوسط. ولقد جاءت تلك الحرب في سياق الخطة الفرنسية – الامريكية لتنفيذ قرار مجلس الامن رقم ١٥٥٩، والذي دعا الى حل جميع الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية ونزع سلاحها. وكما اكدت الشروحات الدولية ذات

الصلة فان المقصود بالميليشيات اللبنانية هو تحديدا" نزع سلاح حزب الله. ولابد من الاشارة هنا الى ان فشل الجلسات التسع للحوار الوطني اللبناني التي انطلقت في الثاني من اذار عام ٢٠٠٦ في ايجاد صيغة مستقبلية لاستراتيجية خاصة بالدفاع الوطني اللبناني قد دفع اسرائيل، وبتشجيع امريكي فاضح، الى شن حرب على لبنان تم الاعداد لها مسبقا".

صحيح ان اسرائيل شنت حربها بعد عملية "الوعد الصادق"، والتي اسفرت في ساعاتها الاولى عن مصرع ٨ جنود اسرائيليين واسر اثنين وجرح ثمانية، الا ان الصحيح ايضا" ان الحرب الاسرائيلية لم تكن نتيجة لردة فعل، بل ان تل ابيب فضلت توظيف ازمة الجنديين الاسيرين لتنفيذ خطط مرسومة سابقا" مع واشنطن لتغيير قواعد اللعبة في لبنان والمنطقة..(٣٨) وهذا ما قصدته وزيرة الخارجية الامريكية عندما تحدثت عن "شرق اوسط جديد يولد من رحم الازمة"؛ وهو "شرق اوسط خالٍ من اي مقاومة وبحيث تكون فيه سورية ضعيفة الى درجة تضطر الى التخلي عن تحالفها مع ايران وربما المقاومة الفلسطينية ايضا" والقبول بشروط اسرائيل للتسوية في الجولان ولبنان. " (٣٩)

بعكس اسرائيل، كانت اهداف حزب الله من وراء عملية "الوعد الصادق" واضحة ودقيقة. فلقد اعلن حزب الله في مناسبات عديدة بانه لن يتردد عن اسر جنود اسرئيليين عندما تسنح له الفرصة بذلك بهدف مبادلتهم بالاسرى اللبنانيين الموجودين في السجون الاسرائيلية منذ اكثر من ربع قرن. هذا يعني ان عملية "الوعد الصادق" كانت محدودة الهدف، ولم تأت كتنفيذ لالتزامات حزب الله الجهادية فيما يخص تحرير كامل التراب الوطني. لكن وفي ما يعني العدو، فان اسرائبل فشلت في بلورة اهداف واضحة لحربها. فبدلا" من الحديث عن انهاء وجود حزب الله، فقد حدد كل من ايهود اولمرت ووزير الدفاع عمير بيرتس ورئيس الاركان دان حلوتس شروطا" مختلفة لحرب "الجزاء المناسب" هدف اولمرت الى اجبار الحكومة اللنانية على تنفيذ قرار مجلس الامن الدولي رقم ١٥٥٩، فيما اعتبر بيرتس ان الغاية المحددة للحرب هي ابعاد حزب الله الى ما وراء مجرى الليطاني والتأكد من انتهاء خطر الصواريخ. من جهته، رأى حالوتس ان هدف الحرب هو حزب الله نفسه عبر قتل قادته...(٤٠)

وعلى الرغم من المآسي والحصار والمجازر، صمد حزب الله ومعه شعب لبنان الذي احتضن عوائل المجاهدين وقطع الطريق على الصهاينة في اثارة الفتنة الداخلية. لقد كان سماحة السيد محقا" في

وصف انتصار الوعد الصادق "بنصر الهي تاريخي استراتيجي كبير. " (٤١) ففي البحر، دمرت المقاومة البارجة الحربية الاسرائيلية حانيت، وجعلت الميركافا اضحوكة في نظر الخبراء العسكريين، وثبتت مبدأ الردع المتبادل ومعادلة تل ابيب مقابل بيروت. وهذه الاخيرة تعتبر تطورا" جديدا" في مجريات الصراع العربي – الصهيوني، اذ لم يتمكن اي جيش عربي من نقل الحرب الى الداخل الاسرائيلي.

خلاصة القول، ان الحرب الاسرائيلية "المتدرجة" على لبنان جلبت على الكيان الصهيوني هزائم متدرجة نصوغها على الشكل التالي:

١ – زعزعة ثقة الاسرائيليين بقدرة جيشهم على حمايتهم

٢ – فشل سلاح الجو في حسم المعركة

٣ – فشل استخباراتي في تقدير قوة المقاومة العسكرية وصلابة ارادة المجاهدين

٤ – ارتباك على مستوى القيادة السياسية في ادارة الحرب

٥ – شلل اقتصادي

ومن يقرأ تقرير لجنة فينوغراد الاسرائيلية حول تقييمها لحرب تموز ٢٠٠٦ يلحظ ان كلمة "فشل" و"اخفاق" و"ارباك" هي العلامات الفارقة لكل فقرة من فقراته.(٤٣) وهذه التعابير تعني بان اسرائيل قد منيت بهزيمة منكرة صيف ٢٠٠٦، وهي سوف تحاول بشتى الوسائل الثأر لتلك الهزيمة. فاستمرار تل ابيب في احتلالها لمزارع شبعا وتلال كفرشوبا وقرية النخيلة، ورفضها الانسحاب الى خط الحدود الدولية، وانتهاكها اليومي للاجواء اللبنانية هو استمرار لحربها المفتوحة على لبنلن. وانه لقول مردود ان يعلن السيد تيري رود لارسن، مبعوث الامين العام للامم المتحدة لمتابعة تنفيذ القرار ١٥٥٩، ان سلاح حزب الله يشكل عامل تهديد للامن الاقليمي (٤٣) وكان الاحرى به ان يعلن ان سلاح حزب الله يشكل تهديدا" لارهاب بني صهيون ضد شعبنا وامتنا. فالحرب الاسرائيلية المفتوحة لا تزال مستمرة، وكذلك المقاومة. واغتيال اسرائيل للقائد عماد مغنية جاء في سياق الحرب المفتوحة، وكذلك ايضا" سوف ياتي الثأر لدمه في سياق تلك الحرب.

الهوامش

١- السفير، ١٤ شباط ٢٠٠٨، ص ١

٢- المصدر السابق، ص ٧

٣- بلال شرارة، "التوراة، الحرب الاستيطان: ثلاثة في واحد. عمليات القضم الاسرائيلي، المنظمة للاراضي اللبنانية"، جنوب لبنان: دراسات في العدوان الاسرائيلي ونتائجه، الجمهورية اللبنانية مجلس النواب، ١٩٩٩، ص ١٢٢

٤- عصام خليفة، لبنان: المياه والحدود (١٩١٦ – ١٩٧٥)، لا ذكر لدور النشر ١٩٩٦، ص ٣٨ – ٣٩

٥- J. Hurewitz, The Middle East and North Africa in World Politics, Vol II, (New Haren: Yale University Press, 1979), p.140.

٦- F. Hof, Galilee Divided, (Boulder Westview Press, 1985) p.13

٧- طارق المجذوب، "المياه اللبنانية في الاستراتيجية الاسرائيلية"، حروب اسرائيل ضد لبنان: نصوص ودراسات، الجمهورية اللبنانية: مجلس النواب ١٩٩٧، ص ٦٥

٨- المصدر السابق، ص ٦٥

٩- المصدر السابق، ص ٦٦

١٠- المصدر السابق، ص ٦٧

١١- المصدر السابق، ص ٦٦ – ٦٧

١٢- المصدر السابق، ص ٦٨

١٣- J. Randal, Going All The Way, (New York: Vintage Book, 1984) p.189

١٤- C. Nowle, "The Israeli Occupation of South Lebanon", Third World Quarterly, (Vol: 8 No:4, 1986), p.1351, See also L. Rockach, Israel's Sacred Terrorism: A Study Based on Moshe Sharett's Personal Diary and Other Documents 25, (Association of Arab – American University Graduation Inc., 1980)

١٥- I. Rabinovich, The War For Lebanon: 1970-1983, (Ithaca: Cornell University Press, 1984), P.163

١٦- عصام خليفة، لبنان: المياه والحدود (١٩١٦ – ١٩٧٥)، ص ١٤٢

١٧- طارق المجذوب،" المياه اللبنلنية في الاستراتيجية الاسرائيلية"، ص ٧٦

١٨- المصدر السابق، ص ٧٦

١٩- هذا ما اعلنته الحكومة الاسرائيلية في ١١ ايار ١٩٩١

٢٠- يوسف ديب، "الحرب الاسرائيلية المستمرة على لبنان: وقائع العدوان في العام ١٩٩٨،" جنوب لبنان، دراسات في العدوان الاسرائيلي ونتائجه، ص ١٨٠

٢١- المصدر السابق، ص ١٨١

٢٢- من مقدمة الدكتورة جورجيت عطية ابراهيم لكتاب روجيه غارودي، الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية، دمشق: د.عطية، ١٩٩٦، ص ٧

٢٣- بلال شرارة، قانا واخواتها، بيروت: عالم الفكر، ١٩٩٦، ص ٣٣٤

٢٤- ملف النهار، من عناقيد الغضب الى سقوط بيريس، حزيران ١٩٩٦، ص ١٥

٢٥- انظر كتاب جريدة السفير، يوميات الحرب الاسرائيلية على لبنان ٢٠٠٦، السفير، تشرين الاول ٢٠٠٦، ص ٨٦

٢٦- المصدر السابق

٢٧- N. Jabbra and J. Jabbra, "Lebanon: Gateway To Peace in the Middle East", International Journal, (Vol:38, No:4, 1983), p.599

٢٨- جنوب لبنان: دراسات في العدوان الاسرائيلي ونتائجه، ص ٢٧٨

٢٩- I. Rabinorich, The War In Lebanon: 1970 – 1983 P. 121 – 122

٣٠- مهى الحسيني، الاسلحة المحرمة دولياّ، واستعماها دولياّ، جنوب لبنان: دراسات في العدوان الاسرائيلي و نتائجه، ص ٧٨ – ٧٩

٣١- الاشارة هنا الى التطورات السريعة والمتلاحقة للاجتياح الاسرائيلي. الشيخ نعيم قاسم، حزب الله: المنهج، التجربة، المستقبل، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢، ص ١٢٦ وص ١٤٣

٣٢- اعداد وتقديم محمود سويد، حرب الايام السبعة على لبنان: عملية تصفية الحسابات ٢٥ – ١٩٩٣/٧/٣١ ، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٣، ص XVII

٣٣- الشيخ نعيم قاسم، حزب الله: المنهج، التجربة، المستقبل، ص ١٥٩

٣٤- الجرائم الاسرائيلية في لبنان، ارهاب الدولة ومسؤولية المجتمع الدولي، الجمهورية اللبنانية: مجلس النواب، ١٩٩٨، ص ١١٥

٣٥- اعداد وتقديم محمود سويد، حرب الايام السبعة على لبنان، ص XXXI

٣٦- الشيخ نعيم قاسم، حزب الله: المنهج، التجربة، المستقبل، ص ١٧٦

٣٧- المصدر السابق، ص ١٧١

٣٨- احسان مرتضى، "حرب لبنان الثانية وتداعياتها العسكرية"، الدفاع الوطني، العدد ٦٠، ايار ٢٠٠٧، ص ٧٩

٣٩- المصدر السابق، ص ٨٠

٤٠- السفير والمركز العربي للمعلومات، يوميات الحرب الاسرائيلية على لبنان ٢٠٠٦، بيروت: الطبعة الاولى ٢٠٠٦، ص ٣٠٤

٤١- المصدر السابق، ص ٧٩٣

٤٢- الاخبار، ١ ايار ٢٠٠٧، ص ٢

٤٣- السفير، ٢٢ نيسان ٢٠٠٨، ص ٥